الخوري جرجس عيسى اللبناني

الراهب القانوني الباسيلي البلدي من الرهبنة المشهورة بالحنّاوية

بقلم الاديب عيسى افندي اسكندر المعلوف احد اساتذة المدرسة الشرقية في زحلة

هو الياس بن ابرهيم (المتوفى سنة ١٨٥١) بن الياس (المتوفى سنة ١٨٣٨) بن عيسى السكاف وينتمي الى أسرة عُرف جدُّها بابرهيم الحنّا النصراني قدم من قرية كفربهم قرب مدينة حماة منذ زمن طويل ونزل في قرية ترحين في ارض حوش الامراء من قضاء زحلة وهي خراب اليوم ثم انتقلت فروعه الى زحلة وبعض قرى البقاع كبرّ الياس وغيرها. وعُرفوا بفرعين احدهما يعرف باسم الحاج شاهين والآخر باسم السكاف وهذا الفرع ينتسب الى جدَّين نصر وعيسى

وقد نبغ من فرع عيسى بعض كهنة افاضل منهم المُترجم وابن عمه الخوري اكليمنضوس عيسى من الرهبنة المخلصية واسمهُ عبدالله دخل الرهبنة سنة ١٨٥٥ م وكان مديرًا للرهبنة ورئيساً لبعض اديارها مدَّةً ثم وكيلًا لها في القطر المصري ووُكلت اليهِ شؤون كثيرة فيها قام بها احسن قيام واشتهر بتقاهُ وغيرته الى أن توفي نحو سنة ١٨٩٣ عن بضع وخمسين سنة

ومن أنباء المترجم الذين اشتهروا في القطر المصرى يهناهم وفضلهم ابرهيم وسليم ابنا عمهِ مخايل عيسى اللذان ارسل اليهما قصيدة سنة ١٨٥٦ منها:

قد حزتم صفات الاكرمينا فقمتم في الورى غوثًا مبينا
نأيتم عن ربوع الاهل عمدًا وانتم ضمن قلبي ساكنونا
تصلّب قلبكم في البعد عنا صاهُ بعد ذلك أن يلينا
رضينا قربكم منا قنُّوا اذا كنتم رضيتم ما رضينا
فأرجو الله قرب الجمع حتَّى أرى من قد غدوا ركنًا مكينا
تسمّى واحدٌ منهم بعدلٍ خليل الله مولى العالمينا
يرادفهُ اسمُ ابراهيمَ معنًى كما جاءت نصوص الاوّلينا
وثانيهم تسمّى اذ تبدّى من القرنى سليم العالمينا
فعاد سلامةً والقلب منهُ تضمَّن كل طهر الطاهرينا
بقيتم سالمين وذاك حسبي ودمتم في نعيم رافلينا

فأسدوا الله باري الكون حمدًا اذا ملتم شمالًا او يمينا

ومن مراثيه البليغة رثاء احدهما المسمَّى ابرهيم كما سيأتي ومن تواريخه الرشيقة تاريخ وفاة امرأة عمه خائيل عيسى سنة ١٨٥٧ كما سيمرّ بك . اما ابن عمه الثاني المسمَّى سليمًا فقد توفي في الاسكندرية سنة ١٨٦٧ وبه انقطعت سلالتهم ورأيت بين أوراقي مرثية لهُ بقلم المرحوم سليم بك تقلا لم اجدها في مجموع اشعاره المطبوع بعد وفاته فآثرتُ اثباتها هنا حرصًا عليها وهي :

حتى متى نحن بين اللهو واللعب ... والبينُ ألقى علينا جفن مرتقب
يا ايها الناس هبّوا من رقادكمُ ... فان داعي المنايا جدَّ بالطلب
تأهبوا واستفيقوا من خماركمُ ... لشرب كاس بها غيرُ ابنة العنب
قد هاجمتنا المنايا وهي غائرةٌ ... فليس من ملجإ منها ولا هرب
أين الملوك ومن في الارض قد حكموا ... وأين من طلعوا في اشرف الرتب
وأين كل قرون الناس من قدمٍ ... ممن انى قبلنا في سالف الحُقب
الله اكبر ما في الارض من أحدٍ ... الّا يذوق كؤوس الموت والعطبِ
ولا سليمٌ من الاقدار مؤتمنٌ ... هيهات ان السليم اليوم في التُرب
سهمٌ قضى ومضى عنا على عجلٍ ... وخلّف الحزن في الاحشاء كاللهبِ
أصابهُ سهم بين شقّ مهجتهُ ... بل شقّ مهجة باكٍ فيهِ متحبِ
قد بات محتجبًا في الأرض وا أسفا ... وشخصهُ بات عنا غير محتجبِ
غصنٌ أتتهُ يد الاقدار قاصفةٌ ... فجفّ وبلاهُ زاهي قدّه الرطبِ
أقام في آل عيسى مأتمًا عظمت ... فيهِ بليّتهم بالويل والحرَبِ
هذا السليم السليم القلب من درنٍ ... بين الورى والسليم النفس من ريبِ
من آل عيسى الى عيسى الاله مضى ... فكان في كل حالٍ خيرَ منتسبِ

وأرخ وفاته العلّامة الشيخ ناصيف اليازجي بقولهِ :

ولّى سليمٌ نحو عيسى جدّهِ ... والنفس طارت نحو عيسى ربّهِ
قد ذاق من كاس الخلاص كما اشتهى ... ماء الحياة منعّمًا في شربهِ
فاذا اردتَ لعامهِ التاريخ قُل ... أعطاهُ ربُّ العرش شهوة قلبهِ

هذه لمعة عن اسرته وبعض انسبائهِ تمهيدًا لسرد ترجمته التي هي :

ولد الخوري جرجس عيسى في معلقة زحلة التي كانت تابعة لبنان سنة ١٨٢٧ ومال الى العيشة النسكيَّة فقصد دير القديس يوحنا الصابغ الشهير وابتدأ فيهِ من يد رئيسه العام الخوري تقولا صوايا في ٢ ت ٢ سنة ١٨٤٥ وهو في السابعة عشرة من سنيهِ ثم

ابوز النذور الرهبانية في ٦ تموز سنة ١٨٤٧ على يد الرئيس العام الموما اليهِ فتلقّى العلوم اللازمة لهُ ومبادئ العربيّة على بعض الآباء اذ ذاك وكان يدرّس بشاره بن الياس النحّاس واخوتهُ في بيروت فاتّصل بالعلّامة المرحوم الشيخ ناصيف اليازجي ودرس عليهِ العلوم العربية بفروعها فأتقنها ثم الفقه الشريف على العلامة الشيخ يوسف الاسير فتضلّع بهِ

ومال الى نظم الشعر فأحرز منهُ نصيباً وافرًا وفي مكتبتي ديوانه بخطّ يدهِ في اكثر من خمسين صفحة بالقطع الكبير وهو ليس الّا منظومات بضع سنين وسأفرد لنظومهِ باباً خاصًّا

وفي سنة ١٨٥٧ سيم كاهناً وتقلّد كثيرًا من اعمال الرهبنة بغيرة ونشاط فقد انتُخب مدبرًا لها في ٢٨ ت ٢ سنة ١٨٥٩ بزمن رئاسة المرحوم الخوري فلابيانوس كنوري واستنسخ بعض كتب منها كتاب « الكاروز » وهو اشبه بمعجم للواعظ يهديهِ الى الآيات الكتابية في كل موضوع يريدهُ وقد رأيت منهُ نسخة قديمة في مكتبة دير القديس يوحنا بديعة الخط كبيرة الحجم فحبّذا لو طبعت لأنها تفيد الواعظين كثيرًا وتسهّل عليهم طلب الآيات الكريمة حسب المواضيع التي يلقون فيها خطبهم

واشتهر بمعارفهِ وتقواهُ فنُصب حَكَمًا للنصارى بزمن الامير بشير أحمد اللمعي نحو سنة ١٨٥٩ وقام بمهمّتهِ قياماً حسناً الى ان شُكّلت المتصرفيّة الجديدة والفيت قائمية المقام في ١٧ ت ٢ سنة ١٨٦٠

ثم حدّثتهُ نفسهُ بأن يوفّر مال الرهبانية خدمة للدين والعلم فاستأذن رؤساءهُ الروحيين وسافر الى ارلندة (من جزيرة بريطانية) سنة ١٨٦١ فصرف هنالك بضع سنوات يجمع الاحسان بغيرةٍ ونشاط ثم عاد الى سوريّة نحو سنة ١٨٦٥ بعد ان عاج ببعض عواصم اوربة

وشرع اذ ذاك بناء على امر غبطة الطيب الذكر البطريرك غريغوريوس يوسف الأول بتشييد المدرسة البطريركية لطائفتهِ في بيروت وهي الى اليوم ناطقة بفضلهِ وعنايتهِ واتفق عليها كثيرًا ممّا جمعهُ من ارلندة كما مرّ وكان بذاتهِ يناظر بناءها واكمل معدّاتها وتوأسها ففتحت ابوابها للطلبة سنة ١٨٦٦ م فاقتنى لها افضل اساتذة عصرهِ كالعلّامتين الشيخ محيي الدين اليافي والشيخ ناصيف اليازجي وسعادتلو شديد بك

حبيش وسليم بك تقلا وغيرهم . فنبغ فيها من الادباء من يذكرون اتعابهُ الى اليوم واجتهادهُ وغيرته . وكان من طلبتها كثير من ابناء الوزراء والاعيان

وقد وضع لها رسومًا وقوانين بمساعدة مدير دروسها الطيب الذكر البطريرك بطرس الجريجيري ايام كان كاهنًا . واسس فيها اخويَّة القربان المقدَّس للطلبة . فبقي بضع سنوات متقاعسًا في ترقيها الى ان دعت الحال ان يستقيل من رئاستها فتركها وجاء دير القديس يوحنا الصابغ فتخرَّج عليهِ كثير من الآباء نخصُّ منهم سيادة الحبر الفيور المطران اغابيوس المعلوف مطران بعلبك الذي صحبهُ كثيرًا ولاسيما بعد انتقالهِ الى بيروت

وفي اوائل سنة ١٨٧٠ استقدمهُ اليهِ الطيب الذكر المطران اغابيوس الرياشي مطران بيروت ولبنان واقامهُ وكيلًا لهُ فشمَّر عن ساعد الهمَّة وشرع في تجديد المدارس وتولَّى التدريس بنفسهِ في بعضها واكبَّ على الوعظ والارشاد وأسس اخوية العذراء الطاهرة في ١٥ آب سنة ١٨٧٠ نثبتها الاسقف المشار اليهِ في ٢٥ اذار سنة ١٨٧١ وبلغ عدد مشتركيها نحو ثلاثمائة وذلك بعد تأسيسها بقليل وقد وضع لها فرائض بكتاب سمَّاهُ « فرض العبادة الواضحة لطالبي الميتة الصالحة » طُبع في المطبعة العموميَّة في بيروت سنة ١٨٧٢ بنفقة الاخوية نفسها في ٣٣٠ صفحة بقطع صغير واخبرني بعض الآباء انهُ طبع حديثًا ثانية

وهذه اول اخوية أُسست في بيروت لطائفتهِ وكان السعيد الذكر البطريرك مكسيموس مظلوم قد أسس اول اخوية في دمشق قبل ذلك

وقسم هذا الكتاب الى ثلثة اقسام ضمَّن اولها فرض الاخوية والثاني رسومها والثالث بعض صلوات خصوصيَّة وقوانين للعابد

ورتَّب عمدة الجمعيَّة ووضع لكل منهم قوانين خصوصية وللجميع قوانين عمومية بضبط واتقان . ورتَّب قوانين للمكتبة الدينيَّة التي جعلها غذاء روحيًّا للاقدس وكان يضر فيها لهم بنفسهِ الجميل ذلك اليوم ليلًا

وقد منع البحث بالامور السياسية والتجاريَّة ونحوهما . ولم تقتصر تلك القوانين على ذلك فقط ولكننا استحسنَّا منها الغاء بعض العوائد التي لا فائدة منها . كالتعرُّض بالردّ لمن يقرأ . والحادثة وقت القراءة القانونيَّة والضوضاء والحركات وتغيير الحلَّات ونحوها .

والخلاصة انهُ جمع بهذا الكتيب كثيراً من الفروض الموافقة للشرقيين مع زيادات مفيدة واسس اخويات للنساء بهذا الاسم ايضاً ولم تزل الاخويتان في بيروت الى اليوم ثم وضع كتاباً آخر سمّاهُ « كتاب صلوات خشوعية لنظم الحياة الروحيَّة » طبع في المطبعة العمومية في بيروت سنة ١٨٧٢ في ٢١٨ صفحة (١

وهكذا صرف حياتهُ بجهاد وغيرة حتى ذاع شهرتهُ في مدينة بيروت وغيرها وكان تقياً جداً ومثالاً للطهارة والعفة كما يقرّ بذلك جميع الطوائف الى اليوم ومن ادلّ الامثلة على غيرتهِ وجهادهِ ما خُتمت بهِ حياتهُ الطاهرة وبذلك نختم سيرتهُ الآن:

لما انتشر الهواء الاصفر سنة ١٨٧٥ في ما بين النهرين وامتدَّ الى حماة وحمص والمرمل وطرابلس وصيدا وغيرها الى ان اتصل بدمشق وبيروت وفتك فيها كلها فتكاً ذريعاً كان هذا الاب الفاضل ثابت الجأش في مدينة بيروت التي ترح معظم سكانها واكثر الكهنة حتى انهُ لم يبقَ الّا المترجم والخوري برنابا البغدادي من طائفتهِ فاشار كثير من الآباء عليهِ ان يترك بيروت بعض ايام تبديلاً للهواء الى ان يتقلّص ظلّ الوباء محذّرينهُ من اتصال المرض بهِ فاجابهم : « ان الصحة العمومية (واراد صحة الانفس) أفضل من صحتي » . وهكذا كان يجول في الاسواق والبيوت متفقداً المرضى يخدمهم في تتميم الواجبات الدينيَّة بلا خوف ولا جزع وكثيراً ما كان يحمل الموتى الى المدافن

فبقي على ذلك اشهراً حتى انهُ بعد زيارتهِ لأحد المصابين احسَّ بهيضة وتهوّع كثير فعرف بدنوّ أجلهِ . ومما يُروى عنهُ انهُ مرَّ في طريقهِ على نجّار من المسلمين واوصاهُ على تابوت مدعياً انهُ لأحد المرضى قائلاً لهُ : ان المريض مثلي تماماً « فأخذ قياسهُ » وما وصل الى الدار الاسقفية حتى اشتدَّ عليهِ الداء فقضى نحبهُ في ٨ آب سنة ١٨٧٥ فذهب الخادم الى النجّار المجاور للدار الاسقفية واوصاهُ على تابوت فقال لهُ : انهُ حاضر واين الكاهن ليأخذهُ . فقال لهُ : انهُ توفي . فتعجّب وبقي يروي ذلك لكثيرين

وكان رحمهُ الله وأجزل ثوابهُ مشهوراً بتقواهُ خطيباً بليغاً يؤثر كلامهُ في النفوس محبّاً للفقراء والمرضى غيوراً على الخدمة الروحية وقد ترك للرهبنة والفقراء مالاً كما ورد في سجلّ الرهبنة واقتنى مكتبة جميلة تنيف على مائتي مجلّد ذات شأن يقلّ نظيرها في

١) راجع المشرق (٣ : ١٠٠١)

المكاتب الشرقية فقيهاً بارعاً متقناً العربية عارفاً بالانكليزية والفرنسوية شاعراً مجيداً وكان مصاباً بالجدري وفي وجهه اثر ندوب منها وقد خدم الرهبنة وكرسي بيروت والمدرسة البطريركية الزاهرة خدمات جليلة تُذكر فتشكر وقد اشار الى ذلك المرحوم سليم بك تقلا في احدى قصائده التي لم تطبع في ديوانه (١ بقوله في مدح المدرسة البطريركية ومؤسسها السعيد الذكر :

ومدرسة في ارض بيروت شادها ... فكانت بها تبديه من حكم مَذْرا
جرى وسطها نهر المعارف صافياً ... وفاض زُلالاً رائقاً يشرح الصدرا
لقد خصّها من قبلُ في جرجس الذي ... أبان ابتداها وابتنى الكدّ والقهرا
وقاسى بها كلّ الصعاب مجاهداً ... وجمّلها علماً وقدراً كذا ذكرا

واشار الى منزلته المرحوم الشيخ خليل اليازجي في مرثيته البليغة له التي منها (٢ :

ليسومك في الورى ذكرٌ عظيمٌ ... كذكرك عند محتضرٍ وبادِ
وما يبقي اذكارك غيرَ دمعٍ ... تشبُّ بهِ الصبابةُ في الفؤادِ
ومثلك لا يفيهِ صَوْبُ عينٍ ... ولو جرت المدامع بالسوادِ
وما مثل المدامع من محبٍّ ... لمن أبكى الأحبّة والاعادي
ومن لم يشكُهُ أحدٌ بضرٍّ ... ومن لم يشكُ ضرًّا في العبادِ
ومن كانت لهُ التقوى شعاراً ... وسهد الليل من أهنا الوسادِ
ومن كانت خلائقهُ عظاتٍ ... بها يأتمُّ أرباب السدادِ
عهدتك لا تُجيب نداء داعٍ ... فما لك لا تجيب دعا مُنادِ
وكنتَ بنيرةٍ ناراً فمالي ... أراك اليوم صرتَ الى الرمادِ
قد انتقدت زماناً فيك حتّى ... غدت فينا لنقدك في انتقادِ
وكنتَ اذا تنادينا بوعظٍ ... تمثّل للملا يوم التنادي
وكان بك الجهاد يذوب حزناً ... فصرتَ اليوم من بعض الجهادِ
وكنت عماد فضلٍ في البرايا ... فبات الفضل منهدم العمادِ
وكنتَ أجلَّ من يرعى وداداً ... فما لك لا تحنُّ الى الودادِ
ستبكي بعد جرجس آل عيسى ... دموعٌ دمٍ تُقارَن بالسهادِ
تضى بالله مرتحلاً اليهِ ... فادرك عندهُ أقصى المرادِ

الى غير ذلك مما يتناقلهُ كثير من شيوخ مدينة بيروت الذين عرفوا عداد حسناته رحمهُ الله

(التتمّة لعدد آخر)

١) النفحة الحزامية المطبوعة في بيروت سنة ١٨٧٠ (صفحة ٧)
٢) نسمات الاوراق المطبوع في مصر سنة ١٨٨٨ (صفحة ١٠)